تلخيص وتحليل عبد الله عبد الدائم

يا « سعدي » النبيل ، فلاح الحقول ! ايها الشعب المحبوب المحسن ! لو ان لذهني اجنحة الشاعر لما تغنيت الا بك ومن اجلك ! لقد عشت بينك شهرين ، ولم ترفض ابداً ان تقاسمني خبزك ولبنك وبصلك وعدسك ، وحتى لحمك الذي ما كانت تحظى به قدرك إلا نادراً ... ان قلبي ليظل وفياً لك . آه لو استطعت ان ادفعك الى ان ترفع الملايين من اصواتك جاهراً بالعدالة التي هي حقك ، اذاً لسمعك قاصي الارض ودانيها ، ولغدا صوتك القوي ايذاناً ونذيراً تجيبه اصوات يائسة ، اصوات مئات الملايين من العمال مثلك ، ممن حرمتهم السلطات الاستعمارية ايضاً ان ينالوا قسطهم العدل من ميراث الانسانية : » (كتاب الحكيم ، الترجمة الفرنسية ، ص ٩٥) .

انه ادب نضالي حقاً ذلك الطراز من الادب الذي نجده في قصة « الحكيم » . ولا نغالي اذا قلنا ان هذه القصة خيرُ ما كتب عن واقع مصر ، وواقع البلدان العربية بالتالي ، وخير ما يمكن ان يقدم للجيل الواعي فيها . فأنت تقرأ فيها ، من خلال قصة ممتعة جذابة تأسرك حوادثها ، وصفاً رائعاً لدقائق الحياة المصريه في ريفها ومدنها ، وتحليلاً نفسياً رهيفاً لنفوس سكانها وصبواتهم وتطلعاتهم وطراز نظرتهم الى الاشياء. وانت تقرأ فيها ، فوق ذلك ، جواً روحياً لاذعاً ، تتذوق فيه ما تقدمه لك نفس « الحكيم » ، بطل الرواية ، من عبق النضال الروحي المتين والوعي المديد للمشكلات الاجتماعية في مصر . انك واجد في هذا الطبيب المصري الذي تنساق القصة على لسانه صورة إنسان كبير آمن بقومه إيماناً مؤيداً بعلمه وعمق نظرته ، وتحسس اوضاعهم ومفاسدهم ومحاسنهم باعصابه الحية المتوقدة ، واحسن التدبر والتأمل ، ونظر ونظر بعيداً ، ولم يقف عند حدود النظر والفهم ، بل تجاوز ذلك الى موقف منسجم يقفه من الاشياء وسلوكٍ نضالي يعالج به ما يستطيع معالجته من ادواء وآفات ضمن نطاق عمله[1] .

فلا عجب إن جعلك الكتاب تطوف ، من خلال حياة هذا الطبيب ، على اوجه الحياة القائمة في مصر : فترى الريف في جماله وبؤسه ، وترى الطب وجرائمه ومستشفيات الحكومة المليئة بالرشوى والاهمال ؛ وترى الدوائر الحكومية وما فيها من سنة وكسل وائتمار باوامر المستعمر ، وترى الاسرة المالكة ومفاسدها وترى الانكليز يسيطرون على كل شيء ويرزح عبئهم الثقيل فوق كل مؤسسة ، وترى الافراد مكبلين بالاغلال ، والمبادهة الفردية مقصوصة الجناح ، وكل روح نضالية مهيضة مشلولة . كما ترى إلى جانب هذا كله ، ذلك الوميض اللامع تحت الرماد ، وميض ذلك العدد العديد من ابناء مصر الذين ادركوا حقيقة وضعهم وثارت نفوسهم على مفاسد بلادهم فوقفوا في وجهها ثابتين اشداء .

ثم أنت ترى بعد هذا كله وصفاً ، اي وصف ، لنماذج الناس الذين تعرفهم بلادنا ، فتلقى صورة الموظف الكبير ، ذي الجثة الكبيرة ، الذي لا يهمه من عمله سوى رعاية بعض الاعمال

« لقد بدأ كتّابنا اليوم يدركون شأن الادب الاجتماعي القومي في مرحلتنا الحاضرة . وكتاب « الحكيم » خيرُ ما يمثّل هذا الادب الاجتماعي القومي الذي نتعطش له ، والذي يستطيع وحده ان يملأ نفوس الشعب وعياً وعزماً . ان تباشير النهضة القومية تتجلى في يراع الادباء . والبعث القومي ينبغي ان يُحمل قبل كل شيء على أجنحة الأدب والشعر والفن . »

---

(١) سنقوم بطبع ترجمة هذه القصة عما قريب .

الورقية الشكلية ، والذي لا يعرف ان يعمل الا وسط الاوراق وتلال المعاملات ، والذي يوصي موظفيه « الصغار » بالحكمة والروية في معالجة الامور ، ويتهم بنقص الخبرة والبعد عن الحنكة كل من يملك منهم روح التفكير الشخصي والنقد الصحيح ، دون ان يتورع ، عند الاقتضاء ، عن ان يطلب من هؤلاء «الصغار» رشوى او مقاسمة لربح او ثمناً لصنيع (او لعدم إساءة ، بتعبير ادق) ، ما دامت الحنكة ، في مفهومه تستلزم ذلك ايضاً!

« ان فقدان الاستقامة والخيانة والدناءة وسائر الطرق الملتوية الخبيثة ، لتزدهر حتى اليوم تحت تلك الصدور المزدانة بالأوسمة ، صدور رجالاتنا الكبار المقربين ، كما يزدهر البق في زوايا سرير قذر » (الحكيم ، ص ٢٣٩) .

ومن منا لم يعرف صورة شبيهة بتلك الصورة التي يقدمها لنا « الحكيم » حين يصف رئيسه الدكتور « قللي » رئيس مستشفى دمنورة ؟

« لقد كان رجلاً مخضرماً بين جيلين ، وكانت ملامحه مقبولة وتم عن ذكاء ، وقسماته واضحة بينة الخطوط ، وشعره متموجاً وخطه الشيب . وكان يرتدي ثياباً مخيطة باتقان وحذاء كستناوي اللون لامعاً . فجلست امامه برهة على مقعد ابيض ، بينما كان يقوم بتوقيع كدسة من الاوراق التي كان يضعها المستخدم امامه واحدة بعد واحدة . وكان يوقعها بسرعة ، دون ان يهتم بمحتواها في قليل او كثير . وادركت بعد ذلك انه كان يوقع دوماً بمثل هذه اللامبالاة عندما يكون في حضرته شخص آخر . وذلك لقصد صبياني هو ان يظهر براعته وكفاءته . وقد علمت ان الخيلاء والزهو من صفاته المعروفة . إنها من اعراض طبعه المريض . وقد اكتشفت ايضاً مع الزمن ان من عادته ان يمر مرتين في اليوم امام الكازينو ، متبختراً متعاظماً في مشيته ، أقيس أميس ، آملاً من وراء هذا كله ان يتأمله الناس ويعجبوا به . حتى اذا رأى انه قد نال من الاعجاب ما يكفي ، صعد الدرج راضياً عن نفسه مطمئناً وجلس على منضدته المألوفة في زاوية الكازينو . »

ومن منا لم يشعر بالالفة امام هذه الكلمات التقليدية التي قالها رئيس الاطباء هذا ، عندما حاول « الحكيم » ان يشكو له ما رآه في مستشفى دمنورة من فساد هاله امره :

« طبعاً انت شاب ومثالي . وقد كنت مثلك في مثل سنك . غير اني اعلم علم اليقين ان الحكومة جامدة على سننها لا تبرحه ... ولو كنت مكانك لما كنت حساساً الى هذا الحد . هون عليك ولا تثر ابداً » .

ومن منا لا تثور في مخيلته مئات الصور الواقعية حين يقرأ ما يلي :

« لقد كان الدكتور (قللي) مثالاً نموذجياً لأولئك الموظفين الذين خرجتهم الادارة المركزية في القاهرة . فبدلا من ان يكرس ذكاءه وطاقته ووقته لتحقيق واجباته ، كان غارقاً في وجوده الخاص ، يحلم بالرقي الى مركز أعلى وبالدخول في ادارة مصلحة الطب حيث يكون اقرب الى الضرع ... لقد كان الدكتور قللي يرى ان المهام هو ان يتزلف الى رؤسائه وينال رضاهم ، وان ذلك اجدى عليه من القيام بواجباته نحو من هم دونه . ومن هم مرضى مستشفى (دمنورة) ان لم يكونوا اناساً دونه ؟ انهم دونه الى حد انه يشعر ان مما لا يستحق العناء ان يضيع وقته معهم . وهو بدلا من ان يكون خادم العلم والشعب ، لم يكن الا واحداً من اولئك الموظفين الكثيرين في هذه الايام الزاهرة ، الذين قادتهم الصدفة الى ان يكونوا أطباء وجراحين ...

« لقد كانت الخيلاء تلعب في طبعه دوراً يسيطر على كل اعماله . فكان يتجول ويجوب الردهات في طلعة المتعاظم وفي ثياب بيضاء نقية لم تدنس . وعلى حين كنت أعنى اكبر العناية وأدقها بتشخيص حالة من الحالات المرضية ، كان هو يمضي من صالة الى صالة ويلقي في كل تشخيص بطائفة من الافكار المبتة لديه سلفاً عن حال المريض ، كل ذلك في مظهر العليم المتفوق الذي لا معقب لعمله . وكان لا يفكر غالباً في ان يخط بذهنه لوحة مرض معين . أو كانت مخيلته السريرية ، على أقل تقدير ، مختلطة غائمة ، ولم يكن يفحص ابداً وجوه المرضى ولا ينظر قط الى اعينهم . وفي غرفة العمليات لم يكن يجري عملية الا لمن كان ينقده المال » .

وانت لا تجد في الكتاب صوراً نموذجية لمثل هؤلاء الموظفين الكبار حسب ، بل تجد فيه عدداً كبيراً من الصور الواقعية الاخرى التي تذكرك بأشياء وأشياء واشخاص واشخاص ، وتعرض لك أصدق عرض ما يجري امامك كل يوم . إنك تجد مثلاً صورة « إبي رزق » رئيس التمرجية (رئيس الخدم) في مستشفى دمنورة ، ذلك الحاكم بأمره الذي يسيطر على كل شيء ، والذي يقوم بدور الطبيب الفعلي ، مرتكباً اخطاء وجرائم لا تغتفر ، والذي يفرض من الرهبة على المرضى ما يجعلهم يرتعدون فزعاً لدى ظهوره ولا يجرؤون على رفض اعطائه الاموال التي يطلبها ثمناً لكل ما يقدم لهم في المستشفى من طعام يقال انه مجاني :

« لقد كان طويل القامة قوي البنية اسمر اللون ذا انف دقيق ومعقوف يشبه منقار طير جارح . وكان يصرف الامور على أختلاف انواعها كأنه مدير المستشفى . وقد ادركت (١) منذ البداية ان سلطتي عليه ليست لها اية قيمة في نظره . لقد امرته ان ينظف الغرف حالا ، ثم عدت فذكرته بهذا الامر بعد ساعتين ، ولكنه لم يفعل شيئاً مما طلبت . وبعد قليل عدت الى قاعات المرضى تدعوني الى ذلك ضجة وحشية تلوح كانها خصام واقتتال . ولما دخلت وجدت (أبا رزق) يضرب أحد المرضى ضرباً مبرحاً . وما ان رآني حتى توقف عن الضرب وأعان المريض الباكي ان يضطجع من جديد كأن لم يحدث شيء . وعندما سألته عما جرى قص علي اكاذيب . وفي ذات صباح اذ كنت أساعد الدكتور مقصود في غرفة المعاينة ، وقعت على امرأة تعيسة كان من الواجب ان تجرى لها عملية فوراً . فرجوت احدى ممرضاتي ان تعنى بها ، غير اني عندما توجهت بعد بضع دقائق الى غرفة العمليات لأقوم بالتهيئات الاخرى اللازمة وجدت ، يا لدهشتي ، ان هذه الغرفة كانت مشغولة ، ووجدت على المنضدة رجلاً مصاباً بكسر مزدوج في فخذه . وكان العظم يتجاوز اللحم بمقدار خمس بوصات تقريباً ؛ وكان ابو رزق يقوم بنشر الفخذ . وكان ينظر اليه في عمله هذا اربعة اشخاص علمت فيما بعد انهم اهل المريض ، وكانوا يلقون بتعليقاتهم على العملية . » (الحكيم ، ص ٢٣٩-٢٤٠) .

(١) الحديث بلسان « الحكيم » بطل القصة ، الذي كان اذ ذاك طبيباً في مستشفى الحكومة في دمنورة .

ولا يعفينا الكتاب ايضاً من صورة نموذجية لأفراد الاسرة المالكة في مصر . إذ يصف لنا « الأمير علي » احد افرادها ، وصفاً يحيط بكل دقائق نفسية مثل هؤلاء الامراء ، وحقيقة مشاغلهم وضروب لهوهم وهواياتهم ونزواتهم. ولن نستطيع هنا ان نخرج جميع تفصيلات هذه الصورة المتحركة الحية. ونكتفي بان نعرض للحديث الذي دار بين هذا الأمير وبين «حكيمنا» حين كان بعد تلميذاً في كلية الطب ، وحين ساقته الظروف الى ان يعنى بسيدة انكليزية كانت في صحبة الامير علي ، فأنقذها هذا الطالب الصغير من الموت حين لدغتها أفعى سامة في البستان الذي اتخذ من احد اكواخه منزلا له . لقد ارادت هذه السيدة ان تقدم له اجراً على عمله ، فرفض ذلك في كبرياء وتمم . فأحنق هذا الرفض سمو الامير وعده اهانة لضيوفه . لذا اقبل عليه بعد ايام وهو في بستانه يتفيأ ظل شجرة ينادي بصوته المرنان :

— اين الحكيم أفندي. أود أن اراه . دعوني اقترب منه. هذا الكلب ، ابن الستين كلب ! مسكين .

ثم سار اليه يقذفه بمثل هذه العبارات « الاميريه » ، وقد ارتدى بنطلوناً قصيراً من الوبر الابيض ، وبدا لامع « البوط » والمهامز ، في هيئة انيقة ، وفي اضطراب شديد ، اضطراب مصطنع يتلبس به ليؤثر في الخدم والمشتغلين في البستان . ونظر الى الحكيم الصغير نظرة وحش مفترس وزمجر قائلا :

— يا كلب ، ماذا تصنع هنـــا ؟ لماذا لا تنهض ؟ أتريد ان استخدم دوتي لأجبرك على النهوض !

ثم تابع حديثه قائلا :

— ايها الكلب المدعي ! أتظن ان دراستك الطب تبيح لك ان تعطيني دروساً ! يا كلب ! سأسحقك . كيف تجرؤ على ان تحدثني امـــام اصدقائي بلهجة عادية ؟

ورفع دوته كأنه يهم بضربه . وصب عليه وابلا من الاهانات ، وقال :

— ان امثالك من الكلاب هم آفة مصر ووباؤهـــا . كم وددت ان اقتل جميع الانكليز الذين سمحوا لك بان تتعلم ! لقد كان جديراً بك ألا تفارق حقولك ومزرعتك وان تكره على العمل بيديك :

وتوقف قليلا ، ووضع نظارة على عينه اليسرى ... واستمر في الحديث، وهدده إن لم يقبل الجنيهات الخمسة التي تقدمها له السيدة الانكليزيه ، وذكر له انه قال لهذه السيدة الانكليزية انه ليس في مصر من يرفض خمسة جنيهات . ولما قبل الحكيم الصغير هذه الجنيهات بعد ان بين له انه يقبلهـــا منه ، وهو الامير المصري ، لا من سيدة انكليزية ، قهقه الامير وضحك ضحكته الهيستيرية وقال: لقد ربحت الرهان ! أجل لقد راهن على ذلك وأكد للسيدة الانكليزية ان ليس في مصر كلها من يرفض مالا ، مهما يكن مصدره ، وفعل ما فعل وشتم من شتم ليكسب الرهان ويلهو قليلا ... ولكن على حساب كرامته وكرامة شعبه .

على ان الكتاب لا يشتمل فقط على مثل هذه النماذج المريضة الفاسدة ، وإنما يشتمل ايضاً على نماذج متفائلة مشرقة ، تمثـــل اولئك الاناس الاعزة الذين نجـوا بأنفسهم من الفساد وقاوموه في قرارتهم وملكـوا بطولة جدية فعالة ، وارادوا ان يفتدوا بتضحياتهم مفاسد غيرهم وجرائم معاصريهم :

« ان تلك الالوف المؤلفة من الشبان والشابات الموهوبين الذين هم اليوم في مرحلة الدراسة والذين سيتسلمون زمام الحكم في يوم من الايام ، يملكون حظاً من الانفة أكبر وأوعى من حظ الجيل السابق ، ويتذوقون الطهر والنزاهة تذوقاً أحد من تذوقه ... »

من هذه النماذج النبيلة صورة الطبيب « احمد » الذي عرفه « حكيمنا » ابراهيم عندما كان هذا الاخير متوجهاً الى القاهرة لينتسب الى كلية الطب ، فاضطر الى التوقف في الطريق بسبب وباء الكولـيرا الذي تفشّى في تلك الآونة وقضى على الالوف من السكان . لقد انبى هذا الطبيب احمد الى قلب منطقة الوباء ليقوم بواجبه الانساني وليسد جانباً من إهمال السلطات المسئولة. وطلب العون من حكيمنا الصغير قائلا :

— « ألم تلاحظ شيئاً غريباً ؟ انظر حولك ! اني لا ارى في أي مكان أثراً لانسان أو حيوان . انني لم اعهد هذا في مصر ابدا . فأنت تلقى دوماً رجالا ونساء واطفالا وبعيراً وحميراً وأبقارا . ان المرء ليخال ان الجرثومة قد ابتلعتهم جميعاً . ان مهمة جدية تنتظرنا يا ابراهيم . ان الشغل الكثير شيء ممتع. ان وجود الشخص الداخلي ليتفتح وينمو عن طريق العمل والواجب».

ويمضي الفتيان . ويدخل الطبيب احمد خيام المرضى. ويرى ما يرى من اهمال الحكومة ، فلا يطيق ما يرى .

— «لقد طلبت مصلا وطلبت ادرينالين وطلبت محاقن وكلورور الصوديوم وكلورور الكالسيوم، ولكن لم احصل على شيء، أي شيء ، إلا البرمنغنات. ان هذا لمثير . ماذا يفيد اذاً ان يكون المرء طبيبـــاً ان لم يستطع ان يقدم المساعدة » .

ثم يفتقد الماء النظيف ، بعد ان اخبره سكان القرية انهم سدوا جميع الآبار بامر الشرطة، فلا يجده. فيعض شفتيه وتثور في عينيه نظرة جنونية ويقول:

— لا ماء نظيفاً ولا قدر . اذا طلبت انا ان تقدم لنا المئونة اللازمة فلن احصل على شيء . ينبغي ان يعطي الامر المفتش . في بلادنا ينبغي ان يتبع التسلسل المعتاد دوماً . انها سياسة الدوائر العليا التي تهدف الى ان تحرمنا من كل مبادرة فردية ، نحن الافراد »

ثم يمضيان الى الخيمة الكبيرة ، فيجدان مناضد ومقـــاعد وسطلا مليئاً بكلورور البوتاسيوم ومصفاة جديدة تحمل ماركة (باستور) تتسع لماء صاف يكفي اربعة اشخاص دفعة واحدة ، غير انه لم يكن ثمة ماء للتصفية . فيصر احمد اسنانه ويقول :

— « لا بد ان انساناً يثري في القاهرة عن طريق بيع هذه المصافي » (وكم لمثل هذا القول من رنين في آذاننا جميعاً ، وكم يثير في ذاكرتنا من حوادث مماثلة !) .

ثم يشاهدان الخدم مقبلين يرتدون قمصاناً جديدة بيضاء ويحملون حملا من الضمادات . فتثور ثائرة الطبيب احمد ويقول مخاطباً الفتى ابراهيم :

— « انظر ، انظر . انهم يأتون بالضمادات . لعلهم يتخيلون في القاهرة، ان لدينا هنا وباء أرجل مكسورة » .

ويتأوه احمد قائلا :

— « يا له من وهم يتلوه وهم ! اتيت هنا لأنقذ حياة النـــاس ، فلم انقذ واحداً منهم . ان تلك الفتاة اللطيفة التي أتوا بها هذا الصبـــاح قد ماتت في المساء . انها ترقد الآن تحت التراب.. اه ، ما ألطف عينيها وما امتع طلعتها !

لماذا ، لماذا كان عليها ان تموت ؟ واه ! اتيت هنا لأدفن الاموات ! هـذا كل ما أتيت له ! »

ويموت احمد بعد ذلك في قلب الطاعون مع من يموت ...

« لقد كان مصرياً فذا . لقل جعل العلم منه انساناً طيباً حقا . لقد قاده حب وطنه الى الموت ، وان له دوماً مكانه بين ابطال قومي المغمورين. ولعل بلادي قد فقدت بفقده ثائراً كبيرا. لعلها ! وما من خسارة في مصر أفدح من هذه الخسارة . فالثائر وحده هو الذي يستطيع ان يجلب نور القرن الخامس والعشرين للملايين والملايين من الفلاحين الذين تتألف منهم امتنا . وهل في العالم شعب أشد صبراً من ذلك الشعب الذي يكدح جاهداً في حقول مصر المنبسطة ؟ الله ! وهل في العالم شعب افقر منه ؟ الى هؤلاء الفلاحين كان ينتسب احمد . »

★

وبعد فرواية الحكيم هذه قصة وضعها الروائي السويسري الشهير « نيتّل Knittel » منذ عشرين عاماً تقريباً [1] . وهو ممن عرف مصر معرفة عميقة واستطاع ان ينفذ فعلاً الى حقيقة الحياة المصرية وحقيقة المصريين ؛ فلم يبخسهم حقهم في كتابه ، وذكر الكثير من مزاياهم وفضائلهم ، وكان دوماً متعاطفاً معهم ، بل اشار في كثير من مواضع كتابه إلى **ان كثيراً من مفاسد اوضاعهم وليدة الاستعمار الذي خنق توثبهم وأزرى بنفوسهم واظهر الجانب السيء من طباعهم**. ووصف عاداتهم وتقاليدهم وافكارهم اجمل وصف واصدقه ، وعرف كيف يعطي التفسير العميق لكثير من هذه العادات وكيف يستخرج من هذه الافكار مواطن القوة والجمال . سوى انه وقع في بعض الاحيان في خطيئات تغتفر له ، من مثل اعتقاده بوجود عرق مصري اصيل ضعيف النسب بالعنصر العربي . على انه فهم الحضارة العربية وفهم الاسلام وفهم قيمة هذا التراث الروحي الذي يغتذي منه ابناء مصر .

وقد اورد كل هذه الافكار عن طريق القصة لا عن طريق البحث الفكري . وهنا موطن القوة في هذا الكتاب. فنحن ندرك جميعاً ان من خير الوسائل في إصلاح مجتمعنا العربي ان نستخدم الادب والفن وما يتصف به الادب والفن من قوة ايحاء وتأثير . وقد بدأ كتابنا اليوم يدركون شأن الادب الاجتماعي القومي في مرحلتنا الحاضرة . والكتاب الذي نتحدث عنه خير ما يمثل هذا الادب الاجتماعي القومي الذي نتعطش له والذي يستطيع وحده ان يملأ نفوس الشعب وعياً وعزماً . إن تباشير النهضة القومية تتجلى في يراع الادباء . والبعث القومي ينبغي ان يحمل قبل كل شيء على اجنحة الادب والشعر والفن.

اما قصة كتابنا هذا ، فقصة يرويها المؤلف على لسان طبيب مصري (حكيم) اسمه ابراهيم جمال الاسيوطي ، يذكر المؤلف انه عرفه قبل وفاته بقليل وانه ارسل اليه بمذكراته ، بعد وفاته ، فصاغها هو ، بعد ان هذّبها ، على شكل هذه القصة .

نشأ هذا الطبيب في مدينة أسيوط في صعيد مصر ، وما

(١) لخص هذه القصة بكثير من الايجاز ، الدكتور ابراهيم ناجي في مجلة المقتطف (عدد يونيو ١٩٣٦) وقد اكتفى بتلخيص القصة وبيان قيمتها دون ان يتناولها بالتحليل أو العرض المفصل .

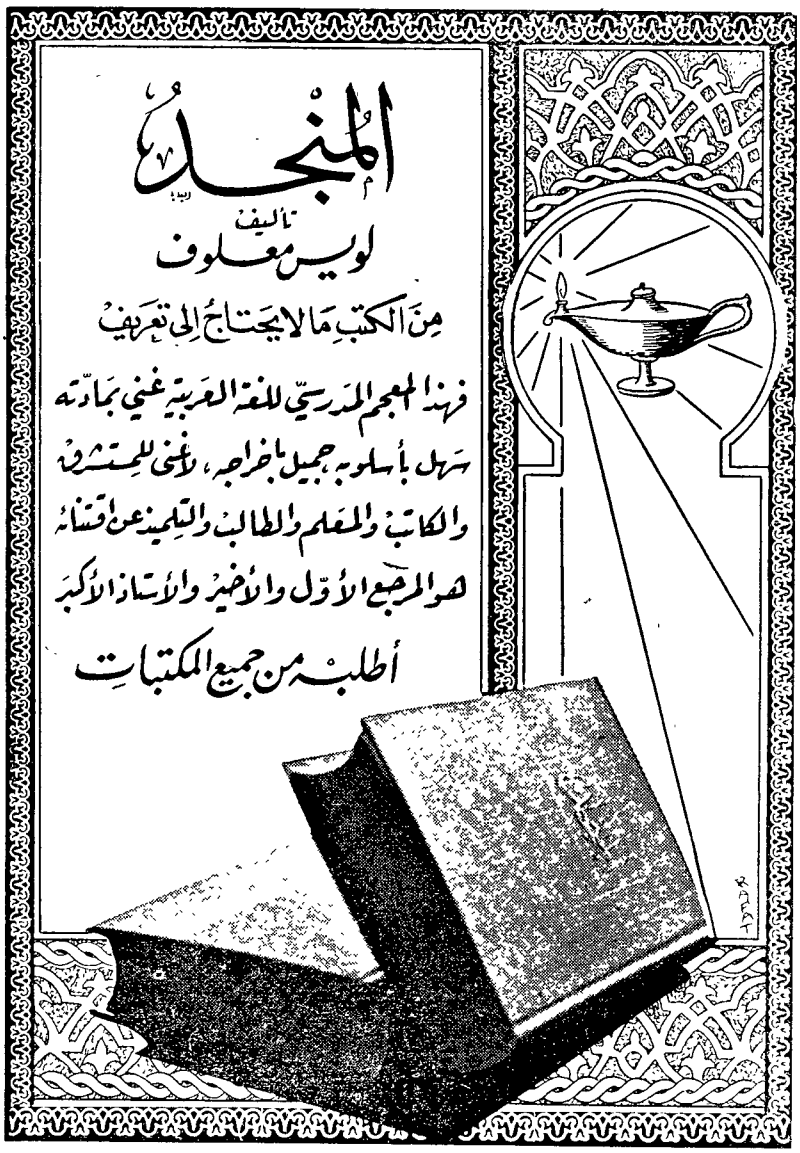

المستودع الوحيد لمطبوعات المطبعة الكاثوليكية

المكتبة الشرقية — بيروت

صعيد مصر ؟ انه أرض مقدسة :

«امزج دم النيل الاحمر بتربتها السوداء القديمة،ثم اضف الى هذا المزيج بذور الشعير أو حبات البرسيم الصغيرة ، تر المعجزة . تر امواجاً خضراً تنبجس من الارض كثيفة جليلة ؛ يا فرحة العين ! »

وراوده منذ ريعان الصبا حلم آلى على نفسه ان يحققه هو ان يغدو « حكيماً » ، حكيماً من اولئك الذين يرتدون القمصان البيض الطويلة ، ويضعون على اعينهم قطعاً زجاجية ، كالذين شاهدهم من نافذة مستشفى الحكومة .

وبعد اخذ وردّ وجدال ارسله ابوه الى المدرسة . وكان قد انتسب ، قبل دخولها ، إلى مدرسة الحياة يطوف الحقول والبراري ، ويزور المذابح والاسواق ، ويمتعه تأمل الفلاحين الفتيان الاقوياء القادمين من الريف ، بصدورهم المليئة المحدودبة واكتافهم العريضة واسنانهم الرائعة ، ويتمنى لو كان سائر ابناء مصر في مثل حالهم صحة وقوة .

ويحدثنا عما لقيه في تعليمه من توجيه فاسد احكم الاجنبي دسّه : يحدثنا عن مناهج التعليم التي تستوردها مصر استيراداً كما تستورد زجاجات الويسكي . ويحدثنا عن المفتشين الانكليز الذين يزورون المدارس وقد ملأهم الخوف من كل روح قومية ناشئة ومن كل مبادرة فردية ، كما يصف لنا خضوع بعض مديري المدارس وموقفهم المتخاذل :

كان مفتش مدارسنا انكليزياً يقطن القاهرة . وأظن انه كان يتناول مرتباً قدره الف ومائتا جنيه في العام . وفي مساء دخولي المدرسة كان مديرنا يجوب الصفوف ويتفقدها قائلاً :

— غداً معالي « فلان » سيشرفنا بزيارته. وبهذه المناسبة السامية يحسن بكم يا اطفالي ان تصلوا الى المدرسة نظيفين ، وان تكون كتبكم منظمة .

— أيوه يا افندي .

وفي اليوم التالي ، بينا كنا واقفين في الباحة في صفوف طويلة ، جال بين صفوفنا ، بخطوات مهيبة ، سيد نحيل يرتدي لباساً ابيض ، وبيده مذبة من عاج ، يرافقه مدير مدرستنا الذي كان قلقاً أشد القلق ، يملأه اجلال وجل .

« يا زميلي العزيز ، يا زميلي العزيز » اني اكاد اسمع في هذه اللحظة التي اكتب فيها حديث ذلك الانكليزي وهو يخاطب المدير قائلا : « يا زميلي العزيز » وحديث مديرنا الذي كان يجيب في خنوع : « نعم يا صاحب المعالي، نعم يا صاحب المعالي . » ولكن الرجل لم يكن صاحب معال . آه ، تباً لهذا اللقب، لقب المعالي، لقد افسد كثيراً من مواطنينا. يا له من سحر : أن يكون المرء صاحب معال !

— أنظروا، لمَ تأتون الى المدرسة يا اطفالي الاشاوس ؟

— لنتعلم يا صاحب المعالي .

— ولم تريدون ان تتعلموا يا اطفالي الاشاوس ؟

— لنكون فيما بعد من خدام الحكومة .

— ماذا ؟ ... جميعكم ؟

وسادت لحظة من الصمت ، ولم يجب احد. فصحت قائلا :

— أريد أن أغدو حكيما .

فبحثت عني عينا معاليه ، وقال :

— آه (سكتة) ولم يا بني ؟

— لأشفي مواطني من المرض .

— آه (سكتة) . مواطنيك ؟

— أيوه .

وعاقبني المدير على ذلك فيما بعد ... »

ويسافر الفتى إبراهيم بعد ان ينهي دراسته الثانوية قاصداً كلية الطب في القاهرة . ويركب مركباً في النيل ، وبينا كان المركب يمخر عباب النيل تدفعه ريح الشمال القوية ... وبينا كان ابراهيم يستمتع بمنظر النيل القاتم الصامت كماضيه ، وقد اسدلت الظلمة ستارها على الشاطيء واخذ الهواء يميل الى البرودة سريعاً ، وشعر ابراهيم « كأن الشهوة تجتاح جميع الاجساد وان الرجال في مثل هذه الليلة يتأوهون باحثين عن رفيقة » ، واخذ يحلم بذراعي صبية لينة وبشفتين تذوبان كثمرة ناضجة وبأنفاس كريح الخزامى. . بينا كان في هذه الاحلام والآمال، استوقف رجال الشرطة المركب واخبروه انه في حال حجر صحي لأن وباء الكوليرا قد اجتاح تلك المناطق الهادئة الناعمة .

ويمضي ابراهيم الى قلب الطاعون، كما ذكرنا، ويعمل مساعداً للدكتور احمد ، يكافح الطاعون ويكافح الآلام ويرى جلال الموت . وبعد ان اشرف على الموت عاد الى الحياة او عادت الحياة اليه . وغادر منطقة الوباء معدماً لا يملك شيئاً ، وهبط الشاطيء الشرقي من النيل وحيداً ، وقصد قرية مجاورة لم يبلغها الهواء الاصفر. وتعرّف هناك على الغفير وعلى ابنة اخيه «عزيزة». لقد كان له من العمر ثمانية عشر عاماً ، وكان لها ستة عشر عاماً.

« وكانت عيناها المزدانتان بالكحل غنيتين بحلاوة محرقة تشيمها شهوة افريقية ما تزال بكراً ... وكانت اسنانها تلمع وقد صفت صفاً جعل ليفترس قلوب الرجال ... وكان لونها البرونزي يشع صحة . وما كانت القطع الغليظة من القماش التي التحفت بها ، كما تفعل الفلاحات، لتقوى على اخفاء كاعبيها العامرين بالمتعة. وكان صوتها أحلى من هدير الحمائم في اشجار الصبار المرهفة التي كانت على حافتي الطريق المؤدي الى القرية ... لقد كانت تمضي للعمل في الحقول ، خلية القلب ، تكدح كما يكدح سائر النساء وسائر الاطفال تقريباً تحت قبة السماء المصرية الزرقاء . وبعد الظهيرة ، عندما كان الهواء يرتجف من القيظ ، كانت تجلس في الظل تحت (ساقية) ابيها، بينما يغني أحد اخوتها وقد اعرورى حماراً عصبت عيناه ، ليدير الدولاب ، ألحاناً لا تنتهي حول حمار وبقرة . وكان الدولاب يصيح والماء يتفجر من الآنية الفخارية وينثر حولنا رذاذاً بارداً.»

فاحبها الفتى واحبته . وفي صباح يوم كانت القرية في عيد ، إذ كان الناس يرتقبون زيارة الباشا ، وهو ملاّك كبير يملك القرية وكل ما تحتويه القرية من حي وميت . وطلب الباشا الفتاة عزيزة من ابيها لتكون خادمة لزوجته . فقدمها الاب له

صاغراً فخوراً . وحاول ابراهيم ان يهرب مع الفتاة ، غير ان رجال الباشا لحقوا به واسترجعوا الفتاة ،وضربوه هو حتى ادموه.

ويصل ابراهيم القاهرة ، ويدخل القصر العيني . ويناضل خلال سنوات الدراسة ، وهو الفقير المعدم ، ويغتذي في اكثر الايام بقصب السكر والعدس والخبز والبصل . ويسكن مع رفيق له اسمه « ابو بكر » ، في حي قذر من احياء القاهرة ، دعي فيما بعد بشارع نظيف. وراودته اثناء العطلة الصيفية فكرة نبيلة وهي ان يفتح مدرسة لابناء الحي يعلمهم النظافة الى جانب المعرفة ويثبت فيهم محبة مصر . ويتم له ما يريد . ولكن الحكومة لا ترضى عن مثل هذا العمل ، ولا ترضى عن مثل هذه التربية القومية لأبناء الشعب. فيوضع ابراهيم قرارة السجن ويثور رفاقه في كلية الطب ويضربون . ويهرع احد ممثلي حكومة جلالة ملك بريطانيا الى رئيس الوزارة المصرية قائلاً :

– « ماذا يحدث ؟ ينبغي ان تقفوا هذا حالاً .
– سوف اسأل عن سبب الاضطراب يا صاحب المعالي .
– أرجوك ، ولا تنس أن تتخذ تدابير زجرية ضد المحركين .
– ما في ذلك شك ، يا صاحب المعالي .
– وإلا اضطررت ان افعل ذلك بنفسي .
– يستطيع ان يتأكد معاليكم انني سأنهي دون ما هوادة ورحمة اضراب هؤلاء الطلاب .

وهكذا كان . « ان كل مصري ، حتى اصغر فلاح ، يعلم حق العلم ما معنى زيارة الرئيس البريطاني لوزير مصري . انه يقوم بهذه الزيارة « ليأخذ المعلومات ! » وهذا يعني انه يفرض بالقوة إرادة وزارة الخارجية البريطانية . واذا كان الامر جليلاً خطيراً ،فويل للوزير الذي يحاول ان يبدي بعض الاعتراضات ».

وينتصر الطلاب ، ويخرج ابراهيم وزملاؤه المعتقلون من السجن . ويعود ابراهيم اشد فقراً مما كان ، واقوى عريكة ونضالاً . وينهي دراسته ويعمل طبيباً داخلياً في مستشفى القصر العيني . ويلتقي هناك بعزيزة وقد وضعت إبنة ، نعم وضعت ابنة من ابن الباشا وتاهت في الارض مع قدرها. واتى بها ابراهيم الى بيته وتعهدها وحاول ان يثير فيها روح الطهر والتضحية . ولكن غلمة الشهوة غلبت عليها ، فذهبت مع صديقه الحميم « ابي بكر » تقطف متع الحس وغادرت المنزل وخلفت فيه لابراهيم اسى عميقاً .

ويذهب ابراهيم الى « دمنورة » طبيبا في مستشفى الحكومة. ويرى من المفاسد ما ذكرنا منه . ويصبر طويلاً . غير ان بعض الحوادث المثيرة لم تبق منزعا في كؤوس صبره ، فقدم شكوى الى الادارة المركزية يصف فيها حال المستشفى وتقصير رئيسه الدكتور « قللي » . فيكون الجواب ان ينقل ابراهيم الى « إدفو » على حدود السودان . ويغادر « دمنورة » رغم توسلات سيدة يونانية عرفها هناك وأحبته ، ويخرج في وداعه مئات الفقراء الذين أحسن علاجهم . ويأخذ معه فتاه « حسين » الذي لازمه طوال حياته وأخلص له . ويحاول في ذلك البلد البائس الفقير ان يهيء جواً لائقا من العمل ، وان يقدم بعض العون والاصلاح . ويجتمع صدفة بسيدة انكليزية ثرية جاءت على « ذهبيتها » الى أعلى الصعيد ، وقفلت راجعة ، فاشتد عليها مرضها وأشرفت على الهلاك ، فمكثت في «إدفو» تنتظر النجدة. وكان معها في « الذهبية » طبيب خاص انكليزي . واستطاع الدكتور ابراهيم ان يعرف سرّ علتها ، وان يخالف بذلك آراء كبار الاطباء الانكليز الذين سبق ان فحصوها. وتؤمن السيدة برأيه ، وتطلب اليه ان يجري لها العملية الجراحية التي يراها لازمة ، رغم انكار طبيبين انكليزيين لرأيه هذا . وتشفى السيدة ويأتي زوجها الثري من انكلترا يشكر للدكتور ابراهيم صنيعه . ويدعوه الى السفر الى انكلترا ليتابع دراسته. فيذهب ويعمل هناك خلال سنوات طويلة، طبيبا في لندن. ويكتسب شهرة هائلة ويجني مالاً كثيراً . غير ان الاعياء يدب في جسده، ويصاب بمرض صدري ، فيضطر الى مغادرة انكلترا الى جبال سويسرا . وفي طريقه اليها يمر بباريس فيجتمع في احدى حانات « مون مارتر » بعزيزة التي غدت راقصة في تلك الحانة ! فيثور ويعزم على انقاذها . وبعد مواقف نفسية عنيفة ، ينجح في ذلك، فيعود معها الى مصر، وتعنى به وتسهر على مرضه ... الى ان يموت ».

*

والآن ، هل لنا ان نعتذر من القصة بعد ان اجتزأناها على هذا النحو؟ ان التلخيص لا يوفيها حقها . وهيهات له ان ينقل ما فيها من جو سحري وحركة روحية ثرّة أخاذة ، ولمحات وومضات نيّرة . إن فيها جو مصر ، بجماله وقبحه ، وبضعفه وقوته، بألوانه الشتيتة اللامتناهية.

عبدالله عبد الدائم
– دمشق –